

الأمير أحمد فؤاد ونشأة الجامعة المصرية

د. محمد صابر عرب

إذا كان محمد علي، يعد بحق مؤسس النهضة المصرية الحديثة رغم القسوة الشديدة التي تعرض لها المصريون وهم يقيمون الجسور ويمهدون الطرق ويستصلحون الأراضي الزراعية، لكن بنائين آخرين من أسرة محمد علي كان لهم الفضل في اكتمال ما بدأه محمد علي، وخصوصاً في المجالات الثقافية، يأتي الخديو إسماعيل في مقدمة البنائين الكبار، ثم يأتي الملك فؤاد كأحد الداعمين الكبار للحركة الثقافية خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين.

والذي لا يعرفه الكثيرون أن فؤاد قبل أن يتولى الحكم كان من دعاة النهضة الثقافية والفكرية، وكان مجلسه منتدى لرواد الثقافة والفكر، وكان أول مدير للجامعة المصرية منذ إنشائها (١٩٠٨).

والحقيقة أن إنشاء الجامعة المصرية كانت وقتئذ بمثابة ثورة على نظام فرض على المصريين فرضاً حيث لا حق لهم في طلب العلم إلا مغتربين عن بلادهم، وأن أبواباً من المعرفة يجب أن تظل موصدة في وجه المصريين الذين

فرض عليهم ألا يحصلوا إلا على قسط متواضع من التعليم يجعلهم بمثابة أدوات في دولا ب العمل الحكومي.

ولعل ما أكده المؤرخ الكبير المرحوم محمد شفيق غربال، من أن تاريخ الحركة الاستقلالية الحقيقي يبدأ بإنشاء الجامعة المصرية (١٩٠٨)، وليس بثورة (١٩١٩) على اعتبار أن الجامعة هي التي مهدت المناخ السياسي والثقافي والوطني الذي حشد جموع المصريين في ثورة (١٩١٩).

لقد كان إنشاء الجامعة المصرية بمثابة تقويض للنظام الأجنبي بكل مقوماته، وأعتقد أن الأمير أحمد فؤاد وهو يحتضن هذا المشروع العملاق كان على وعي بتاريخ الأسرات العريقة في أوربا والتي تبنت إنشاء الجامعات التي كانت بمثابة البدايات الحقيقية لعصر النهضة الأوروبية الحديثة.

لقد كان إنشاء الجامعة المصرية بمثابة محصلة لجهاد وطني متواصل، شاركت فيه الجماعة الثقافية والوطنية بكل تياراتها في حقبة تعد من أخطر مراحل التحول في التاريخ العربي والمصري، فقد ظهرت الأحزاب المصرية بالمعنى السياسي والاجتماعي، كما صاحب ذلك ظهور عشرات الصحف اليومية التي عبّرت عن أفكار وتوجهات جماعات سياسية ووطنية لم يكن متاح لها أن تعبر عن نفسها حتى نهاية القرن التاسع عشر.

واللافت للنظر أن مشروع إنشاء الجامعة المصرية يكاد يكون هو المشروع الوحيد الذي حظى بإجماع ودعم كل القوى الاجتماعية والسياسية بعكس القضايا الأخرى التي انقسم بشأنها المصريون، ابتداءً بقضية المرأة ومروراً بالعلاقات المصرية العثمانية وانتهاءً بقضية الاستقلال والدستور... إلخ. وجميعها اختلفت الأحزاب بشأنها.

لقد حظى مشروع الجامعة بدعم هائل من الخديو عباس حلمي الثاني الذي ترأس بنفسه لجنة الجامعة، وجعل رئاستها الشرفية لولي عهده الأمير عبد المنعم، وبقي منصب الرئاسة الفعلية شاغراً حتى ٢٢ ديسمبر ١٩٠٧، حينما أسند الخديو عباس حلمي الثاني رئاسة اللجنة إلى الأمير أحمد فؤاد.

ومنذ أن ترأس أحمد فؤاد رئاسة اللجنة تواصلت الجهود الحكومية والشعبية، حيث تسابق المصريون على التبرع، وكان الأمراء والأميرات وكافة رموز الحركة الاجتماعية والسياسية في مقدمة المتبرعين.

لكن مما يستلفت النظر النص على استقلال الجامعة، وكان الأمير أحمد فؤاد أول من عبّر عن ذلك: "أعلن على رؤوس الأشهاد أن الجامعة المصرية ومجلس إدارتها وجمعيتها العمومية مستقلة تمام الاستقلال، وليس لأي سلطة أو جهة من الحكومة أدنى تدخل في أعمالها، وأن كل القرارات التي قررتها

اللجنة؛ والتي ستقررها إنما أصدرتها وستصدرها بتمام الاستقلال، بما يوحيه ضميرها. وهكذا قطعت الجامعة شوطاً كبيراً بفضل الأمير أحمد فؤاد، لكن كان من الصعب أن يتحقق هذا الحلم الكبير، إلا بفضل المتبرعين من كل الطبقات الاجتماعية في الريف والحضر، الأمراء والأميرات، ويأتي اسم الأميرة فاطمة ابنة الخديو إسماعيل تلك السيدة العظيمة التي أرادت أن تكون قدوة لغيرها فتبرعت بـ ٦٠٠ فدان من أجود الأطيان من بين ٣٣٥٧ فدانا خصصتها للمشاريع الخيرية المختلفة، كما تبرعت بـ ٦ فدادين ليقام عليها السكن الجامعي، كما تبرعت بكل مجوهراتها التي بيعت في مزاد بمبلغ ٧٠٠٠٠٠ جنيهاً مصرياً.

لقد قدمت الأميرة فاطمة مثلاً يحتذى ليس لجيلها فقط؛ وإنما لكل الأجيال اللاحقة، ما أعظم أن يخلد شخص ويرتبط اسمه بمشروع عظيم كمشروع الجامعة المصرية التي أحدثت نقلة هائلة ليس في حياة المصريين فقط؛ وإنما في حياة كثير من النخب الثقافية في معظم الأقطار العربية، علماً وثقافة ومعرفة. وسيبقى اسم الأميرة فاطمة ما بقيت الجامعة رمزاً للعلم والتنمية والتقدم.

إن الجامعة المصرية فضلاً عن أنها قدمت خدمة جليلة لكل العالم العربي، فقد أعادت لنا ذكرى معاهد بغداد والأندلس، إضافة إلى أنها كانت من أهم العوامل التي كونت حياتنا العقلية والثقافية التي جعلت من العلم وسيلة للنهوض الفكري والحضاري لكي يتبوأ الإنسان العربي مكانته اللائقة، منذ بدايات القرن العشرين. وطوال قرن من الزمان كانت الجامعة المصرية (جامعة القاهرة) بمثابة الأب الشرعي لكل الجامعات العربية؛ فضلاً عن أن أجيالاً من المثقفين العرب قد تخرجوا من هذه الجامعة وأشاعوا في أرجاء وطننا الكبير قدراً هائلاً من الثقافة والمعرفة.

د. محمد صابر عرب
رئيس الهيئة العامة لدار
الكتب
والوثائق القومية المصرية
Email: chairman@darelkotob.gov.eg